

منهج التبريزي في شرح قصيدة
"بانة سعاد" لكعب بن زهير

The Method of Al-Tabrizi in Explaining
The Poem 'Banat Souad' By Kaab Ibn Zuhayr

أ. نورالدين الإدريسي

أ. د. الحسن الهلالي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
بفاس
المغرب

Noureddine.elidrissi1@usmba.ac.ma

Elhassane.elhilali@usmba.ac.ma



منهج التبريزي في شرح قصيدة "بانة سعاد" لكعب بن زهير

أ.د. الحسن الهلالي - أ. نورالدين الإدرسي

ملخص:

يتناول هذا المقال منهج الخطيب التبريزي، بصفته أحد أبرز شراح الشعر في القرن الخامس الهجري، في شرح قصيدة "بانة سعاد" لكعب بن زهير. فقد سلك هذا الشارح مسلكاً مائزاً متح مبادئه من مرجعيته الفكرية وظروفه الاجتماعية التي نشأ فيها وتربى عليها وإمكاناته العلمية التي وجهته نحو دراسة وشرح أشهر قصائد العربية في أبهى صورها. وذلك للكشف عن معاني الأبيات الشعرية والأساليب والصور الفنية والجمالية التي تميز هذه القصيدة أو تلك من حيث خصائصها الأسلوبية والفنية وظروف إنتاجها، ليفصح بذلك عن مكان من شرح الشعر في مرحلة من مراحل سيرورة الشروح الشعرية المواكبة للتطورات التي عرفتها علوم اللغة وعلوم القرآن والحديث، باعتبارها ركائز يستند إليها قصد استنطاق ديوان أو دواوين أو قصيدة بعينها عبر شرحها.

الكلمات المفاتيح: منهج- شرح الشعر- علوم اللغة- معنى.

Abstract:

This article examines the method of Al-Khateeb Al-Tabrizi, one of the prominent poetry commentators of the 5th century AH. The focus is on his commentary on the poem "Banat Souad" by Kaab ibn Zuhair. The commentator follows a distinguished method, intertwining his intellectual background, social circumstances, and scholarly capabilities that guided him in studying and explaining the most famous Arabic poems in their finest forms. The purpose is to unveil the meanings of poetic verses, artistic techniques, and aesthetic images that characterize specific poems. The analysis delves into stylistic and artistic features, as well as the production circumstances, shedding light on the intricacies of poetry commentary during a phase concurrent with the developments in linguistic sciences, Quranic studies, and Hadith sciences. These disciplines serve as pillars for engaging with the anthology, collections, or specific poems through their commentary.

Keywords: Method-Explanation of poetry-Linguistic sciences- Meaning.

1- مقدمة:

إنّ شرح الشعر خطوة تفسيرية تحليلية منهجية تتطلب من الشارح الإمام بالخصائص الفنية والمضمونيّة للخطاب الشعري المقصود بالشرح والتعرّف إلى ظروف إنتاجه، والتسلّح بالآليات العلمية والأسس المنهجية الموجهة لعملية الشرح، فيتمكّن الشارح بفضل مسيرته العلمية ومرجعياته الفكرية من بناء خطاب شارح ومفسر لمعاني خطاب إبداعي، أخذاً في ذلك بعين الاعتبار نشأة الشاعر وبيئته التي جعلته يعبر عن عواطفه، وأحاسيسه، ونواذعه ومنازعه بواسطة كلام موزون.

ولعلّ الخطيب التبريزي، بصفته شارحاً من شراح الشعر في القرن الخامس الهجري، قد اتّخذ طريقاً خاصاً ينساق فيه نحو الكشف عن معاني الأبيات الشعرية والأساليب و الصور الفنية والجمالية التي تميّزها، ليعلن بذلك عن ملامح شرح الشعر في مرحلة من مراحل سيرورة الشروح الشعرية المواكبة للتطورات التي عرفتها علوم اللغة وعلوم القرآن والحديث، باعتبارها ركائز يستند إليها قصد استنطاق ديوان أو دواوين أو قصيدة بعينها عن طريق شرحها. فما هو منهج التبريزي في شرح قصيدة "بانة سعاد" لكعب بن زهير رضي الله عنه؟

2- سياق المتن:

لقد حفل التاريخ الإسلامي بالشعراء الذين تفتنوا في مدح سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلّم؛ فهناك من دافع عن رسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم ودعوته منذ البعثة أمثال كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وهناك من أتى محمداً صلى الله عليه وسلم راجياً منه العفو والصفح؛ ومن هؤلاء الشعراء الذين مالوا عن ضلال الكفر إلى هداية الإسلام كعب بن زهير¹ الشاعر الذي "كان يحالفه أبداً إقتار وسوء حال. وكان أخوه بجير أسلم قبله ويشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وكان أخوه كعب أرسل إليه ينهاه عن الإسلام، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتواعده، فبعث إليه بجير فحدّره، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بأبي بكر، فلمّا سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو ملثم بعمامته، فقال يا رسول الله، هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسر كعب بن زهير عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير... فأمنه واستنشد² لاميته المشهورة التي مطلعها:

بَانَتْ سَعَادُ فِقْلِي الْيَوْمَ مَتْبُولٌ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

1- كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني (ت26هـ)، شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد كان ممّن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلم فهدر دمه، وهو من أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى (ينظر: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق علي محمد هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج16، ص:302).

2- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، د.ت، ج1، ص154.

فتابع إنشاد أبيات قصيدته ليسترسل في مدح سيّد البريّة وأصحابه، وذمّ كفار قريش حتى ختم قصيدته ليَهَبَهُ محمد صلى عليه وسلم بُردته، وهذا شاهد ودليل على الرأفة والرحمة اللتين اتصف بهما المصطفى عليه الصلاة والسلام، ورقّي شعر كعب بن زهير. وهذا التميز والسمو دفعا شرّاح الشعر على مر العصور وطيلة قرون متواصلة إلى شرح هاته القصيدة¹ مستندين في ذلك إلى كفاءاتهم ومساراتهم العلمية المتباينة التي وجهت مناهجهم في الشرح، فشرح وفسّر هذه القصيدة شراح، من الواضح أنّهم اقتنعوا بالمكانة التاريخية السامية التي تحتلّها تبعاً للسياق الذي وردت فيه والطابع القيمي الذي تحتله في نفوس المسلمين من خلال غرض المديح النبوي، إضافة إلى رغبة الشرح البيّنة في التأليف والتصنيف في مختلف العلوم والفنون التي برزوا فيها. ولعلّ الخطيب التبريزي (ت 502هـ) أحد أبرز الشراح الذين انفردوا بأساليبهم ومناهجهم في شرح الخطابات سواء أكانت أدبية (الشعر) أو شرعية (القرآن الكريم والحديث النبوي). فمن هو الخطيب التبريزي؟ وما هي أهم مؤلفاته التي أبرزت تكوينه العلمي الموسوعي؟

3- الخطيب التبريزي؛ حياته ومؤلفاته:

1-2- حياته:

هو "أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الحسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي... أحد أئمة اللغة والنحو، أخذ عن أبي العلاء المعري، وأبي القاسم عبيد الله بن علي الرقي، وأبي محمد الدهان اللغوي"²... وهو الذي كان قد "ولّى تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب بها... شاع ذكره في الأقطار"³ رام طلب العلوم اللغوية والشرعية، إذ "سمع الحديث بمدينة صور من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي ومن أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن يوسف الدلال اليساري البغدادي... كان ثقة في اللغة وما كان ينقله"⁴. لقد كان التبريزي موسوعياً موثوق المعارف تعلّم وعلم، ألفت طلب العلم وأخذ عن كبار علماء العربية، لتكون مسيرته العلمية شجرة تفيضاً بظلالها تلامذته الذين عاصروه ولازال يقطف ثمارها المهتمون باللغة العربية وعلومها عن طريق البحث في الكتب التي ألفها وأثرى بها الخزانة العلميّة العربيّة.

1- من أهم الشراح الذين سبقوا الخطيب التبريزي في شرح قصيدة بانة سعاد {أبو العباس ثعلب (ت 292هـ)، ابن دريد (ت 321هـ)}، وممن تبعوه في ذلك {أبو بركات الأنباري (ت 577هـ)، (ابن هشام الأنصاري (ت 761هـ)}.
2- ابن الأنباري (أبو بركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السمراي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959م، ص 254.
3- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، 1384هـ-1965م، ج 2، ص 338.
4- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1498هـ-1978م، ص 191-192.

2-2- مؤلفاته:

تنوعت مؤلفات التبريزي بين الأدب واللغة والنحو (الإعراب والصرف) والبلاغة (البيان، المعاني، البديع، العروض) وعلوم الشرع، ومنها:

- شرح المعلقات العشر
- شرح اختيارات المفضل
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام
- تهذيب إصلاح المنطق
- الملخص في إعراب القرآن
- مشكاة المصابيح

إضافة إلى كتاب "شرح التبريزي على: بانث سعاد لكعب بن زهير رضي الله عنه¹. فما هي ملامح منهج التبريزي في شرحه هذه القصيدة؟

4- منهج الخطيب التبريزي في شرحه لقصيدة "بانث سعاد" لكعب بن زهير:

لا مشاحة في أن لشراح الشعر فضلا كبيرا في تقريب معاني الأشعار التي شرحوها ووضحوها وفسروها، برصد أبيات القصيدة وتتبعها وفق خطة منهجية خاصة بكل واحد من هؤلاء الشراح؛ إذ تسوق هذه الخطة أو تلك المرجعية الفكرية والمسيرة العلمية لكل منهم. وبتصفح شرح الخطيب التبريزي لقصيدة "بانث سعاد" يتضح أنه قد أبان عن كفاءته و جدارته في ولوج عالم الشرح من الباب الواسع الذي فتحه على مصراعيه؛ والشاهد على ذلك غزارة مؤلفاته في هذا الجانب، ويعود الفضل إلى تكوينه العلمي وحياته العملية اللذين يمكن من خلالهما أن نقر أن شرح الشعر في القرن الخامس الهجري، باتخاذ الخطيب التبريزي نموذجا، قد بلغ مرحلة النضج، من خلال الوعي بأهمية التكامل والانسجام بين المستويات التي يعتمد عليها في عملية الشرح.

لقد اعتمد الخطيب التبريزي في شرحه لقصيدة "بانث سعاد" مستويات متنوعة أظهرها وكشفها تفسيره وتحليله لهذه القصيدة بيتا بيتا. ويمكن الإفصاح عن هذه المستويات كما يلي:

4-1- مستوى الرواية:

ورد هذا المستوى لأول مرة في معرض تفسير التبريزي للبيت الخامس:

تَنْفِي الرِّيحِ الْقَدَى عَنْهُ وَ أَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعْالِيلُ

بقوله: ويروي (جُلُو الرياح القذى) يعني أن الرياح تكشف عنه ما يعلوه وتصفيه

1- لتوضيح منهج الخطيب التبريزي في شرح هذه القصيدة اعتمدت نسخة حققها وعلق عليها عبد الرحيم يوسف الجمل، والصادرة عن مكتبة الآداب بالقاهرة، سنة 1423هـ-2003م.

ومن ذلك شرحه للبيت الثاني عشر:

أَرْجُو وَأُمَلُّ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتْهَا وَمَا إِخَالُ لَدِينَا مِنْكَ تَنْوِيلُ

فورود رواية أخرى قد تشمل البيت كله:

أَرْجُو وَأُمَلُّ أَنْ يَعْجَلْنَ فِي أَبَدٍ وَمَا لِهِنَّ طِوَالَ الدَّهْرِ تَعْجِيلُ

فاهتمام التبريزي بتعدد الروايات قد طرقه عدة مرات في شرحه؛ وقد يخصّ هذا التعدد جزءاً من شرط بيت أو شرطاً أو بيتاً بأكمله، ولم يخف هذا الأمر عن الشارح، ولربّما هذا راجع إلى حسه بالأمانة العلمية ورغبته في إيصال ما يعلمه في أمر الرواية، وهو الذي وصف بالثقة في اللغة والنقل.

2-4- المستوى المعجمي :

إنّ شرح الكلمات المفردة التي رآها التبريزي بحاجة إلى شرح مسألة لا معدل عنها في عملية الشرح، لأنها هي الجسر الموصل إلى فهم معنى البيت الشعري، فهو لم يغفل هذا المستوى بل جعله الخيط الرابط لطرق المستويات الأخرى، رغبة منه في إيفهام معاني المفردات بيتاً بيتاً وربطها بالسياق الذي وردت فيه، بدءاً من أول كلمة في القصيدة (بانة) التي شرحها ب(فارقت) وصولاً إلى آخر كلمة من البيت الأخير من الشرح (تهليل) التي شرحها بالنكوص والتأخر. فاستحضار هذا المستوى من الشرح يظلّ قائماً متصديراً عملية الشرح لكل بيت من أبيات القصيدة دون استثناء¹.

3-4- المستوى اللغوي:

اعتمد التبريزي هذا المستوى بشكل واضح طيلة شرحه لأبيات القصيدة، حيث يذكر أوزان الكلمات لغرض تفسير المعنى مع استحضار كلمات توازيها وتشاركها نفس الوزن لإزالة الغموض، وهذا وارد في البيت الرابع:

شُجَّتْ بِذِي شَيْمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحٍ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

حينما فسّر كلمة محنية بقوله: محنية (مفعلة)، من حنوت أحنو إذا عطفت، وكلّ كلمة كانت لأمه واوا ووقعت رابعة وقبلها كسرة، قلبت ياء نحو غازية ومحنية وأصلها غازوة ومحنوة، فقلبت الواو فمهما ياء لما وقعت رابعة وقبلها كسرة، وهذا عقد من عقود التصريف؛ فالتبريزي هاهنا فسّر صرفياً الكلمة (محنية) باستحضار قاعدة من قواعد الإعلال بالقلب.

كما أنّ المفسّر ظلّ مواظباً، وبشكل بيّن، على استحضار مشتقات الكلمات التي يفسرها وقد برز ذلك من خلال أول كلمة من القصيدة (بانة)؛ حين قال: (بان يبين بينا وبينونة) وسار على هذا المنوال عدة مرات،

1- الشرح بالمرادف أمر لا معدل عنه في الشرح، وهذا ما استحضره شراح الشعر على مرّ العصور؛ حيث وظفه الشراح بوصفه أول عتبة يستعان بها لدفع الإبهام وتحقيق الإفهام.

كما أنك تجده يذكر مفرد الاسم إذا ورد في القصيدة جمعا، مطبقا بذلك قاعدة الأصل والفرع في اللغة. ومن ذلك شرحه للبيت السادس والخمسين:

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِ تَعْصِمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا غَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ

بقوله: الزهر: البيض جمع أزهر وزهراء

...والتنابيل: جمع تنبال، وهو القصير وهو أحد ما جاء من الأسماء على وزن تفعال.

4-4- المستوى النحوي:

إن النحو بيت من البيوت العلمية التي لجأ إليها، أو بالأحرى سكنها واستقر فيها الخطيب التبريزي ليتخذها قاعدة من القواعد العلمية التي ألفها وأبدع فيها، ودليل ذلك كتابه "الملخص في إعراب القرآن"¹.

فقد وظّف التبريزي المستوى النحوي أول مرة في شرحه للبيت الرابع من القصيدة:

شَجَّتْ بِذِي شَبِيمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

وقد برز هذا المستوى من خلال إعراب التبريزي لـ(وهو مشمول) بالجملة المركبة من مبتدأ وخبر، وهي في موضع نصب لأنها خبر أضحى، واسم أضحى مضمرفيها.

كان الشارح يلجأ إلى إعراب الألفاظ للإبانة عن المعاني وإظهارها كلما اقتضت الضرورة ذلك، وهو ما يعكس تكوينه العلمي الذي يمثل النحو جزءاً مهماً منه.

(هـ) المستوى البلاغي:

لم يخلُ شرح التبريزي لقصيدة "بانث سعاد" من البعد الفني الجمالي؛ حيث رجع إلى هذا البعد في تفسيره لعدد من الأبيات الشعرية اعتماداً على علوم البلاغة، فما هو في شرحه للبيت الثالث من القصيدة:

تَجَلَّوْ عَوَارِضِ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مِنْهَلٍ بِالرَّاحِ مَعْلُولٍ

ويورد أسلوب التشبيه بقوله: إذا ابتسمت قابلت منها نكهة كطيب رائحة الخمر

ومن التشبيه نذكر- كذلك- ما ورد في شرح البيت الرابع:

شَجَّتْ بِذِي شَبِيمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

قوله: (شجت) أي: مُزِجَتْ، يقال شججت الخمر إذا مزجتها، أشجها شجاً،... كأنك كسرتَ حدتها بالماء.

ومن الحسن البلاغي- أيضاً- اعتماد التبريزي أسلوب التجنيس؛ عن طريق الإتيان بلفظتين من الجنس نفسه بمعنيين مختلفين فينفس البيت؛ وهذا أمر وارد في شرح وتفسير البيت العشرين:

1- تطرق التبريزي في هذا الكتاب إلى إعراب وتفسير آيات سور قرآنية (سورة يوسف، سورة الرعد، سورة إبراهيم، سورة الحجر، سورة النحل، سورة الإسراء، سورة الكهف، سورة مريم، سورة طه): ينظر: الخطيب التبريزي، الملخص في إعراب القرآن، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 1425هـ-2004م.

حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها من مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّها خالها قَوْداً شَمْلِيلٌ

وأدلى بذلك صراحة وهو يشرح هذا البيت باللجوء إلى بيت يعود لشيخه أبي العلاء المعري:

إِذا ما أَنْخَنَّا حُرَّةً فوق حُرَّةٍ بكى رَحْمَةً الوجناء منها وجيئها

وذلك في إطار توضيح معنى "حرف" (الناقاة الضامرة) ومقارنتها بأنواع النوق الأخرى، ويقول في هذا الجانب من الشرح:

أتى التجنيس في موضعين من البيت، وهما الحُرَّة والحُرَّة، والوجناء والوجين. والحُرَّة الكريمة من النوق وغيرها. والحُرَّة كل أرض تربتها ذات حجارة سود. وقبل ذلك ذكر أنّ الوجناء هي الناقاة الغليظة الوجنتين. والوجين هو الغليظ من الأرض.

فالجناس أو التجنيس سواء أكان تاماً كما في (الحُرَّة والحُرَّة) أو ناقصاً مثل (الوجناء والوجين) أسلوب بلاغي من علم البديع استعان به التبريزي في شرحه، شأنه شأن أساليب أخرى تندرج ضمن المحسنات البديعية في كلام العرب كذلك. ومن أبرز هذه الأساليب أسلوب المقابلة في شرح البيت الثامن والثلاثين:

أُنْبِيتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولٌ

أُنْبِيتُ: أُخْبِرْتُ. والوعد: في الخير والإيعاد في الشر...

فالمقابلة تظهر بين (الوعد والإيعاد) و(الخير والشر): على أساس أنّ هاتاه الكلمتان وردت متضادّة في جملتين متتاليتين بنفس الترتيب.

وفي شرح البيت نفسه أورد الشارح أسلوب الطباق (إيراد كلمتين متضادتين في نفس الجملة) في قوله: وعد خيراً وشرّاً.

ومن ثمة فإن توظيف التبريزي للأساليب البلاغية ليس مجرد صدفة أو عرض بل ساقته إلى ذلك كفاءته المميّزة وتمكّنه الدقيق والجليّ من البلاغة وعلومها؛ وهذا راجع إلى فضل شيوخه عليه، وهو الذي تتلمذ على يدي أبرز جهابذة البلاغة عبد القاهر الجرجاني¹، حيث يعد تصنيفه "الكافي في علمي العروض والقوافي"² ثمرة دالة على النضج البلاغي في علاقته بالمنهج المعتمد في شرحه الشعر.

4-5- المستوى الدلالي:

شكّل الشرح باعتبار المستوى الدلالي أمراً لا معزل عنه في شرح التبريزي لأبيات قصيدة "بانة سعاد"؛ حيث برز من خلال استجلائه بالشرح والتفسير أبيات القصيدة بيتاً بيتاً قصد نقل معاني هذه الأبيات للقارئ في علاقة سابقها بالحقها، بالنظر إلى السياق الذي ورد فيه كل بيت على حدة.

1- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت 471هـ) هو مؤسس علم البلاغة، ألف عدّة كتب في علوم العربية أبرزها: أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز، درج الدرر في تفسير القرآن الكريم.. وهو أحد شيوخ التبريزي (ينظر: السيوطي، بغيّة الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص 338).

2- ينظر: الخطيب التبريزي، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1415هـ-1994م.

وقد استند التبريزي إلى الجانب الدلالي مذ البيت الأول من القصيدة؛ إذ تراه يشرح و يفسر باستعمال عبارة "بمعنى أن" أو "معناه أن" أو "والمعنى أنه". وقد استهل هذا النهج من الشرح في توضيحه لمعنى البيت الأول:

بَانَتْ سَعَادٌ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

وهذا بيّن في الشرح الذي قال فيه:

وقوله: لم يفد من الفداء. ومعناه أنه لما فارقت هذه المرأة وتبلت قلبه وتيمّمته، صار بعدها كأسير محبوس لم يفد بفداء يفكه من الأسر، فهو باق على حالة الأسر.

ليلتزم الشارح بهاته الطريقة ويعتاد عليها طيلة شرحه أبيات القصيدة توضيحاً للمعنى، حتّى ينهي شرحه آخر بيت أنشده كعب بن زهير:

لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ

وقد أكّد ذلك في توضيحه معنى البيت كلّه قائلاً:

يعني: أنهم لا يهزمون فيقع الطعن في ظهورهم، وإنما يقدمون إقداماً في الحروب، فيقع الطعن إذا قدموا في نحورهم.

واعتماداً على المستويات (المعجم، اللغة، النحو، البلاغة، الدلالة) بنى صرحه في شرح قصيدة "بانّت سعاد"، إضافة إلى الاستشهادات التي لم يكتفِ فيها بنوع واحد، حتى يكتمل المعنى شرحاً وتفسيراً وتحليلاً.

4-6- الاستشهاد في الشرح:

لم يغفل الخطيب التبريزي استثمار ما تعلمه من شيوخه وصنّف منه في علوم القرآن والحديث¹، عن طريق الاستشهاد بآيات قرآنية، بوصفها سنداً محققاً للإفادة ومحصلاً للإفهام، إذ تجد الشارح ينهج هذا النوع من الشرح تارة، ويتجاوز تارة أخرى في تفسيره وتحليله لعدد من الأبيات، ليستأنفه من جديد كلّما اتضح له أن سياق البيت الشعري يقتضي ذلك؛ ومنه شرحه البيت الخامس والخمسين الذي يمدح فيه الشاعر المسلمين في معاركهم:

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

اعتمد الشارح في شرح هذا البيت شاهداً قرآنياً يركي ما ذكره كعب في هذا السياق. وفي ذلك يقول شارحاً مستشهداً: أي: إذا غلبوا لا يفرحون وإذا غلبوا لا يجزعون كأنّه ألمّ بقوله تعالى: "لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

1- طرق التبريزي باب الأحاديث النبوية الشريفة بترتيب متونها وتعداد رواياتها مرتبة ترتيباً منهجياً مضبوطاً يقوم على تبويب وتصنيف أحاديث نبوية تخص العبادات والمعاملات (ينظر: الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1399هـ-1979).

وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ¹ يصفهم بالصبر على الشدة وقلة الاكتراث (بما ينالون) من الأعداء. والمجازيع: جمع مجزاع، وهو الكثير الجزع (أي: الخوف)...

كما استحضر التبريزي قولاً للرسول صلى الله عليه وسلم في شرحه للبيت الثامن والثلاثين:

أُنْبِئْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

حينما أورد رد فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يسمع إنشاد كعب بن زهير؛ حيث قيل لما أنشده هذا البيت قال النبي عليه السلام: "العفو عند الله مأمول".

وتجدر الإشارة إلى أن التبريزي كان على وعي بأهمية الاستشهاد ودوره في إزالة الإبهام وترسيخ الفهم، إذ استعان في شرحه وتفسيره للامية كعب بن زهير، في علاقتها بالسياق الذي وردت فيه والغرض المتعلق بكل بيت شعري، بأبيات شعرية لشعراء مرموقين جاهليين أو مخضرمين² وغيرهم، كما أنه لامس أشعار شيخه أبي العلاء المعري وهو يشرح بتوظيف التجنيس وفق ما ذكرنا سلفاً في شرح البيت العشرين من القصيدة. والأكثر من ذلك، عمل التبريزي على تنوع شرحه بالرجوع إلى تفسيرات شراح الشعر في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة، وهذا بين في شرح كلمة (العتاق) في البيت الثالث عشر:

أَمَسْتُ سَعَادُ بَارِضٍ لَا تُبَلِّغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَّاسِيلُ

(العتاق) جمع عتيق...: (والعتيق) الكريمة من الإبل والخير وغيرهما

...ويقال وجه عتيق أي: كريم حسن كأنه عتق من العيوب، أي نجا منها، وبهذا سمى عتق العبد والأمة أي نجوا من الرق...

وقال (ابن كيسان): سُمِّيَتْ عَاتِقًا لِأَنَّهَا عُتِقَتْ عَنْ خِدْمَةِ أَبِيهَا وَلَمْ يَمْلِكْهَا زَوْجٌ.

وقال (ابن السكيت): هي التي بين أن تُدْرِكَ إِلَى أَنْ تَنْعَسَ عُنُوسًا، مَا لَمْ تَتَزَوَّجْ.

ولعل لجوء التبريزي إلى شرح الشراح السابقين له دليل على استفادته منهم واعتراف منه بفضلهم في الشرح بالنظر إلى الجوانب التي طرقتها وهم يشرحون دواوين أو قصائد بعينها. ومن أهم المستويات التي ارتكز عليها شراح الشعري الأوائل المستوى اللغوي والمستوى النحوي اللذين اعتمدهما التبريزي بدوره، إضافة إلى المستويات الأخرى التي حققت نوعاً من التكامل في عملية الشرح والتفسير.

ومن أنواع الاستشهادات التي أوردها التبريزي أمثال العرب و أقوالهم التي تشكل رافدا مهما من روافد الشرح قصد التأثير في المتلقي وإقناعه بعد إفهامه؛ فقد اعتمد الشارح عليه، على سبيل المثال، في شرحه للبيت الخامس والثلاثين:

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهَيْتَكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ

1- القرآن الكريم، سورة الحديد، الآية 23.

2- من الشعراء الذين استشهد بشعرهم الخطيب التبريزي في شرحه: الأعشى، عنترة بن شداد، الخنساء...

يذكر أنه استجار بجماعة من أصدقائه ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يؤوه أحد منهم وقوله ألهيتك أي أشغلنك. يقال: ما ألهاه عن ذلك أي ما شغله عنه، ويقال منه لهيت عن الشيء ألهى، وفي الحديث: "إذا استأثر الله تعالى بشيء فآله عنه".

فهذا القول كان ولا زال يوظفه العرب للاستدلال به في مختلف أمور الحياة اليومية، كما يلجأ إليه أعلام اللغة والدين لتفسير آيات قرآنية و نوازل دينية، ومنه ما ورد في تفسير جزء من سورة عبس "وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى"¹؛ ومنه ما يُقال في هذا الأمر: "لهي عن الشيء يلهي: كغسي يغشى إذا غفل، ولها به يلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: ((فلها رسول الله صلى اله عليه وسلم بشيء كان في يديه)) أي اشتغل به، ومنه في الحديث الآخر ((إذا استأثر اله بشيء فآله عنه)). وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: اله عنه"². ومنه يتبين أن الخطيب التبريزي ذو ثقافة موسوعية تجمع بين الأدب وعلوم اللغة وعلوم الدين؛ وهو الذي درّس اللغة والأدب بالمدرسة النظامية ببغداد وكان قيماً على خزانتها، مما جعله مصححاً ومنقحاً ومنهجياً في تأليفه وشرحه وتفسيره³؛ وهذا ما يعكس الهاجس التعليمي الذي جعله ينشئ لنفسه منهجاً عاماً منظماً ومرتبياً في الشرح والتفسير.

5- خاتمة:

نخلص من خلال ما سبق ذكره، ورجوعاً إلى شرح التبريزي لقصيدة "بانة سعاد" لكعب بن زهير، إلى أن الشارح قد استند إلى منهج متكامل يقوم على التدرج والاتساق في شرحه؛ فقد شرح وفسر وحلّل بشكل علمي وعملي بعيد عن الانطباعات الذاتية التي قد تفسد الشرح. فهو لم يبد رأياً في شرح بيت، ولم يرجح رواية على أخرى، ولم ينتقد شارحاً من الشرح الذين أشار إليهم، بل شرح شرحاً موضوعياً تضافرت فيه الروافد التي لجأ إليها في شرحه:

- المستوى المعجمي (الشرح بالمرادف).
- المستوى اللغوي (الشرح بالاشتقاق والتصريف).
- المستوى البلاغي (الشرح بأساليب البيان والبديع والمعاني).
- المستوى الدلالي (الشرح بتوضيح المعنى).
- الشرح بالاستشهاد (آيات قرآنية، أقوال الرسول صلى الله عليه، أبيات شعرية، أقوال الشرح الأوائل، أقوال وأمثال العرب).

1- سورة عبس، من الآية 8 إلى الآية 10.

2- ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي)، الضوء المنير على التفسير، نشر مؤسسة النور للطباعة والتجليد، مكتبة دار السلام، د.ت، المجلد السادس، ص 277. كما ينظر: المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د.ت، ج 2، ص 292.

3- من المؤلفات التي تعكس الطابع المنهجي الدقيق للخطيب التبريزي كتاب "تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت" الذي نصح وشرح فيه ما ورد من لحن لدى العرب في لغتهم.

وقد سار الشرح كله وفق طريقة تدرجية متوازنة تستحضر عناصر الشرح بيتا بيتا، حسب ما يتطلبه غرض الإفهام والإقناع، بلغة أدبية تعليمية خالية من الغموض؛ ليعبر بذلك الخطيب التبريزي عن مرحلة النضج التي وصل إليها شراح عصره في الشرح والتفسير عموما، وشرح الشعر خصوصا.



قائمة المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- الخطيب التبريزي، شرح التبريزي على: بانة سعاد لكعب بن زهير رضي الله عنه، نسخة حققها وعلق عليها عبد الرحيم يوسف الجمل، مكتبة الآداب، القاهرة، 1423هـ-2003م.
- 3- الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1399هـ-1979م.
- 4- الخطيب التبريزي، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1415هـ-1994م.
- 5- الخطيب التبريزي، الملخص في إعراب القرآن، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 1425هـ-2004م.
- 6- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1498هـ-1978م.
- 7- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1384هـ-1965م، ج2.
- 8- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، د.ت، ج1.
- 9- ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي)، الضوء المنير على التفسير، نشر مؤسسة النور للطباعة والتجليد، مكتبة دار السلام، د.ت، المجلد السادس.
- 10- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د.ت، ج2.
- 11- ابن الأنباري (أبو بركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السمرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959م.